غازي عبد الرحمن القصيبي

العودة سائحاً إلى كاليفورنيا



دار الساقي

العودة سائحاً
إلى كاليفورنيا

الطبعة الثانية ١٩٩٧

ISBN 1 85516 305 5

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين ميمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٦٠٢٣١٥ (٠١)

DAR AL SAQI
London Office· 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 0171-221 9347, Fax: 0171-229 7492

الفهـرست

الإهداء

إلى رفاق الطريق

بين براثن البيروقراطية

مطار «لوس أنجلس»، صيف ١٩٨٧م (١٤٠٧هـ).

خُمس قرن، يزيد قليلاً أو ينقص قليلاً، قد انصرم منذ غادر صاحبنا كاليفورنيا يتأبط شهادة «الماجستير»، كما تأبّط أخونا القديم شرّاً، ويفكّر في الوظيفة التي سيشغلها، وهل ستكون في المرتبة الثالثة أو الرابعة حسب التصنيف القديم (كان هناك أيامها جدل فقهي إداري حول أنواع «الماجستير» انتهى بإعلان «ماجستير» صاحبنا درجة أولى أي تستحق المرتبة الثالثة). عاد إلى كاليفورنيا منذ ذلك الحين مرّات تقلّ عن أصابع اليد الواحدة في مهمات رسمية لا تستغرق الواحدة منها سوى يوم أو يومين. أما الآن فهو يعود متأبّطاً جوازات السفر ووثائق «العفش» ويقود حملة قوامها الزوجة والإبنة والأولاد الثلاثة و ـ صدّق أو لا تصدّق ـ الحماة. وها هو ذا يقف بخضوع مصطنع، كعادته أمام كل بيروقراطي يأمر وينهي، أمام موظف الجوازات.

لم يتغيّر شيء في عقلية موظفي الجوازات. الموظف ينقّب في أعماق الجوازات كما يبحث علماء الآثار عن حلية فرعونية صغيرة ضائعة في الصحراء.

أقول له بأدب زائف، كعادتي أمام البيروقراطيين:

ـ لا داعي لأن تتعب نفسك. صلاحية الجواز تمتدّ ستّة أشهر بعد صلاحية التأشيرة. إنني أعرف الأنظمة.

وكيف لا أعرف الأنظمة وقد دفعت ثمن جهلي بها غالياً يوم وصلت الولايات المتحدة ذات يوم بجواز تنتهي مدته بعد صلاحية التأشيرة بشهرين. تبعت ذلك أهوال وخطوب ـ «لجنة وإجراءات» كما يقول الأشقّاء المصريون ـ أعفي القرّاء الكرام من تفاصيلها. أمّا مجملها فينطق بلسان فصيح:

ـ البيروقراطية هي البيروقراطية والتعليمات هي التعليمات حتّى في بلاد العم سام.

عندما كان الموظف يجوس في أحشاء الجوازات خطر ببالي أن هذا الحرص المبالغ فيه لم يمنع بضعة ملايين من جيران الولايات المتحدة من التسلل إليها والإقامة غير المشروعة في مدنها. ولا زالت مشكلتهم تستعصي على كل الحلول. فليس بالإمكان تجنيسهم، وليس بالإمكان إبعادهم. ولا تزال أعدادهم تتزايد. ومع هذا فموظفو الهجرة يخشون أن يسمحوا بدخول زائر «شرعي» إلاّ بهذه الشروط المشدّدة[1] . . فتأمّلْ!

وجد موظف الجوازات، أخيراً، ما يبحث عنه فانفرجت أساريره عن شبه ابتسامة. قرأ المهنة في جوازي فسألني:

ـ ماذا يعمل السفير؟

---

(١) ذات يوم وأنا أملأ «استمارة» للحصول على تأشيرة أمريكية وجدت خانة تسأل عن الوزن فرفضت أن أملأها. . من حيث المبدأ!

قلت:

ـ هناك شيء من التشابه بين عملي وعملك.

نظرة استغراب.

ـ كيف؟

ـ نحن، أيضاً، معشر السفراء ننقِّب في الجوازات ونمنح التأشيرات ونتّبع التعليمات.

سُرَّ الموظف بهذا الاكتشاف. وأصبحت ابتسامته حقيقية.

اختفى «المستر هايد» ودخل «الدكتور جايكل» ـ أو لعله العكس! ـ بعد أن تبيَّن أننا زملاء في المهنة.

بعد ذلك انتقلنا بعُجرنا وبجرنا إلى الجمارك. وموظفو الجمارك الأمريكية، نساءً ورجالاً، غلاظ شداد، إلاَّ أنهم هذه المرَّة لم يسألوا غير سؤال واحد:

ـ هل لديكم أكثر من عشرة آلاف دولار نقداً أو شيكات سياحية؟

وأجبتُ بالإِيجاب. مشيراً إلى الحملة التي ترافقني. واكتفوا بتسجيل تلك الحقيقة (النقود لا الحملة).

حدَّثني صديق أمريكي أثق في بعض كلامه أن الولايات المتحدة تُنظِّم عملية الحصول على مبالغ نقدية تنظيماً صارماً: أي بنك يعطي أي زبون مبلغاً نقدياً يتجاوز عشرة آلاف دولار

عليه أن يبلّغ تلك العملية إلى جهة مركزية في رقابة البنوك. أعان الله «الكمبيوتر» الذي يستقبل هذا الطوفان «المعلوماتي». والسبب؟! السبب أنّه تبين أن «الكاش» كثيراً ما يُستخدم في تمويل بيع المخدرات وبقية نشاطات «المافيا». كل عاطفتي مع «الكومبيوتر» خصوصاً بعد أن دخل اسمي الكريم، على ما أتصوّر، خزانته منذ دقائق.

قلت للأولاد:

ـ هنا يا سادة لا يوجد حمّالون ولا شيّالون فاعتمدوا على أنفسكم.

انقضّ الأولاد انقضاضة صقر واحد على عربة ضخمة حاولوا أن يحمّلوها حقائبنا العشر فسقطت الحقائب وانقلبت العربة، وتراجع الأولاد بانتظام. وهنا رأيت من المناسب أن «أفوّض» هذه المهمّة للزوجة. أرجعت الزوجة العربة الضخمة إلى مكانها وأحضَرت بدلاً منها أربع عربات صغيرة حملت الحقائب وهي تتنهّد (العربات) و «تمشي الهوينا كما يمشي الوجى الوجل».

« إدوارد الأول ».. ورصاص في الطريق

في انتظارنا وقف « أتوبيس » صغير ـ أعني « حافلة » فهذه من الكلمات القليلة الجديدة التي وُفِّقت المجامع اللغوية العربية في نحتها. كان السائق ينظر إلينا وكأننا قد طعنّا تمثال الحريّة في خاصرته. ونطق:

ـ لقد تأخرتم نصف ساعة!

اعتذرت بحرارة. وبدأنا إدخال الحقائب والبشر في الحافلة الصغيرة. ثم انطلقنا في شوارع لوس أنجلس.

السائق إدوارد ـ وقد أطلقتُ عليه لقب « إدوارد الأول » باعتبار أنه من المستحيل أن يكون قد وُجد قبله « إدوارد » آخر يماثله في الغباء والبرود والثرثرة والنحس ـ بدأ يطرفنا بآخر أنباء لوس أنجلس:

ـ هذه الأيام يطلقون الرصاص على السيارات.

قلت لنفسي: « لا بد أنني أخطأت الفهم ». استوضحت. فكرَّر العبارة.

قلتُ:

ـ ولكن من هم أولئك الذين يطلقون الرصاص؟ وعلى من؟ ولماذا؟

كان من الخطأ أن أقذف «إدوارد الأول» بكل هذه الأسئلة.

لجأت إلى أسلوب «التقسيط المريح»:

ـ من الذي يطلق الرصاص؟

ـ الركّاب في السيارات.

ـ ويطلقونها على من؟

ـ على الركاب في السيارات الأخرى.

ـ لماذا؟

ـ من يدري؟ التسلية. أو الكآبة. أو الغضب. أو الزحام الشديد. لا أحد يدري حتى الأطباء والعلماء.

يتحدث «إدوارد الأول» وهو يضغط بشدة على «الكوابح»، لم توفّق مجامع اللغة العربية هذه المرَّة، مرسلاً حقائبنا فوق رؤوسنا ومقترباً اقتراباً خطيراً من السيارات التي كانت تدرج أمامنا. وأرهفت سمعي أنتظر أزيز الرصاص.

ولكن الله سلّم.

الولدان (فارس) ١٠ سنوات، و (نجاد) ٧ سنوات، سمعا الكثير عن أمريكا وغرائبها. ولكن حكاية إطلاق النار من السيارات المجاورة لم تخطر لهما ببال. لاحظت، وتجاهلت ما

لاحظت، أنّهما بعد أن استمعا إلى القصّة أخذا ينكمشان تدريجيًا حتى اختفى كلّ واحد منهما في غيابات مقعده.

لم لا؟

وقد قدما غير مسلّحين حتى بالمسدّسات المائيّة.

أقاصيص « إدوارد الأول »

« إدوارد الأول » يفيدنا أنه قد خُصِّص خط خاص في « الفري وي » ـ الشارع السريع؟! يا مجامع اللغة ترجمي! ـ للسيَّارات التي تحمل أكثر من راكب واحد. هذا الخط يساعد هذه السيارات على التحرك بسرعة أكثر. والحكمة هي تقليل عدد السيارات بتشجيع أصحابها على المشاركة ـ أضع سياراتي في المنزل وأذهب معك في سيارتك اليوم وتنعكس الآية غداً ـ حتى يتمتعوا بميزة استخدام الخط الخاص. أطرفنا « إدوارد الأول » بقصّتين أنعشتا المحامي القابع في مكان ما من روحي، والذي لم يمارس المحاماة منذ سنين طويلة (وبالتحديد منذ طلب مني صديق عزيز أن أشرف على مكتبه القانوني خلال غيابه في بعثة دراسية فُقدتُ المكتب بهمة وبراعة إلى الإفلاس).

قال « إدوارد الأول »:

ـ القانون يتطلب وجود أكثر من « واحد » في السيارة، ولا يحدِّد طبيعة الواحد. وقد اصطحب أحدهم كلبه ودخل الخط.

وعندما أوقفه رجال « البوليس » قال لهم أن كلبه ـ بالتأكيد ـ « واحد »، وأن الشروط بالتالي تنطبق عليه. ورفض « البوليس » على أساس أن القانون افترض أن يكون « الواحد » آدمياً. وذهبتْ

القضيّة إلى المحكمة. وقرر القاضي، الذي يبدو أنه ليس من عُشّاق الكلاب، أن «الواحد» يجب أن يكون من ذرّية آدم. أمّا الكلب فقد يعتبر «واحداً» في نظر صاحبه، ولكنه ليس كذلك في نظر القانون. وضحكنا. ونبح أحد الأولاد. فعضّه أخوه.

وأطرفنا «إدوارد الأول» بقصة ثانية:

ـ كانت امرأة تقود سيارتها بمفردها وتستخدم الخط. وعندما أوقفها رجل «البوليس». قالت إنها تحمل معها مسافراً ثانياً. وعندما استفسر رجل «البوليس» عن موقعه أشارت إلى بطنها المنبعج وقالت:

ـ هذا الجنين في أحشائي.

وكالعادة، وصلت القضية إلى المحكمة. وحكم القاضي بأن الجنين يعتبر «واحداً». وقامت قيامة إدارة المرور ولم تقعد واستأنفتْ الحكم. ونقض الاستئناف حكم القاضي مُعلناً أن الجنين لا يعتبر «واحداً».

وبعدها لم تُشاهَد امرأة حامل ولا كلبٌ عقور على الخط الخاص.

وفي هذه الأثناء كان «إدوارد الأول» قد ضلّ طريقه. وأبعدنا عن هدفنا.

قال لي ببرود:

ـ لقد ضعتُ!

قلتُ:

ـ لاحظتُ ذلك.

قال ببرود أشدّ:

ـ هل تودّ أن تقتلني الآن ـ أو فيما بعد؟

لا حول ولا قوة إلاَّ بالله!

رصاص. وكلب. وحوامل. وسائق «تِلِمْ»[1] ضلّ الطريق ويريد أن يعرف موعد الإِعدام!

وضحكتُ متظاهراً أنه لا يسرّني في حياتي شيء سروري بالضياع خاصة بعد رحلة بالطائرة استغرقت الليل كُلّه، وجزءاً كبيراً من النهار.

قلت:

ـ انطلقْ إدوارد انطلقْ!

وانطلق. وكاد يأخذ معه سيارة صغيرة كانت تعبر بجانبنا.

الهدف الذي أضاعه «إدوارد الأول»، «ديزني لاند»، هي أشهر مكان في جنوب كاليفورنيا، وربّما كانت أشهر مكان في الولايات المتحدة بعد البيت الأبيض. وأحسب أن «ديزني لاند» بالفعل لا تحتاج إلى تعريف، لا كما يقول عريف الحفل وهو يقدم متكلماً مغموراً يحتاج إلى ألف تعريف. ويكفيها شهرة أن

(١) تطلق كلمة «التِلِم» بالعامية المصرية على من بلغ أقصى درجات البرود.

خروشوف عندما زار الولايات المتحدة كان لديه رجاء واحد وهو أن يزور « ديزني لاند ». وقال الأميركيون « لا ». وبرّروا الرفض باعتبارات أمنية. إلاّ أنني أظنّ أن السبب الحقيقي هو رغبة الأمريكيين في « عكننة » مزاج الرفيق وقد كانت الحرب الباردة في أوج غليانها. ومات الرفيق وفي نفسه شيء من « ديزني لاند ».

لا بُدّ أن أقول كلمة هنا عن « والت ديزني » الفنّان العظيم الذي أنشأ المدينة، واخترع الرسوم المتحركة، بدأ بأشهر جرذ في التاريخ (رُبّما بعد الجرذ الذي تقول الأسطورة إنه نقب السدّ في اليمن). قلائل أولئك الذين يستطيعون منح السعادة للآخرين. وأقلّ منهم أولئك الذين ينثرونها نثراً على الجموع. و « والت ديزني » واحد من تلك القلّة النادرة التي أثرت بموهبتها الحضارة الإنسانية كلّها. لا بُدّ أنّه مات وهو سعيد بعد أن نجح، أكثر من أيّ إنسان قبله، في زرع ملايين البسمات على وجوه ملايين الأطفال. إن له ركناً خاصاً في قلبي.

« إدوارد الأول » لا يكف عن الثرثرة. وقد انتقل الآن من الدفاع إلى الهجوم. وبدأ يسألني أسئلة شخصية لا تنتهي. (وذلك على طريقة الزائر العربي الذي يدخل بيتك لأول مرّة فيسألك هل هو إيجار أم ملك ثم يستفهم عن مقدار الإيجار أو تكلفة البناء). وخلال ثرثرته يؤزّ بقية السيارات أزّاً. خفتُ من كارثة محققة. وقلت باستعطاف:

ـ لقد قدمت لتويّ من سفرة طويلة مرهقة. هل بالإمكان أن نؤجّل الحديث إلى الغد؟

نظر إليّ نظرةً صفراء. وكدت أسأله:

ـ هل تودّ أن تقتلني الآن؟ أو فيما بعد؟

وصلنا فندق «ديزني لاند»، لم تستغرق عملية التسجيل سوى لحظات. كان كل شيء ـ الأسماء والتواريخ وأرقام الغرف ـ مُسجّلاً على شاشة «الكومبيوتر». بدأت أنسى كيف كان الناس يتعاملون مع بعضهم قبل قدوم «الكومبيوتر». كانت الحياة أبطأ قليلاً ـ فهل كانت أسعد قليلاً؟ خطر ببالي أن أسأل «كومبيوتر» الفندق. ولكني استبعدت أن يكون دماغه الإلكتروني مهيّئاً للإجابة على سؤالٍ سخيف كهذا.

وفجأة، وجدتُ نفسي ضحيّة «الجت لاج» أي التعب الناشىء عن سفر بالطائرة يقترن بفارق كبير في التوقيت (يا مجامع اللغة العربية! هل من ترجمة أقصر؟!)[1]. وأثر الفارق الزمني، على ما يبدو لي، كالعفريت الذي لا يظهر إلاّ لمن يخاف منه. وإلاّ كيف أفسّر الحقيقة التالية: عندما كنت أصغر، وأنشط، وأقل معلومات، كنت أروح إلى أمريكا وأجيء منها، لا أشعر بتعب ولا خمول ولا صعوبة في النوم أو الصحو؟

---

(١) ترجمها صديقنا الروائي الكبير الطيب صالح، إن لم تخني الذاكرة، «قفزة الطائرة النفّاثة»، ـ فما رأي اللغويين؟

وقال لي الشيء نفسه عدد من الأصدقاء. وقد يتطوع متطوع فيقول: «إنه العمر!». وهذا صحيح إلى حدٍّ ما. ولكن أولادي الصغار، لأنهم سمعوا الكثير عن فارق التوقيت، يعانون منه بدورهم. «ومن العلم ما قتل» كما قال الأخطل الصغير بحق.

كان الوقت، قبيل المغرب، لا يساعد على النوم. وكانت أجسادنا في منتهى الإرهاق تعتقد أنها لا زالت في منتصف الليلة التي ذهبت. وكنا حائرين بين ساعة الجسد وساعة الحائط. وقرّرنا أن نسهر قليلاً حتى لا تضطرب مواعيد النوم الجديدة. وانشغلتُ بكتاب. وانشغلت الزوجة بفتح الحقائب العشر وترتيب محتوياتها، وهذه مهمة يحسن بالزوج الحصيف ألاّ يشارك فيها بقول أو فعل. وانشغلت الحماة بتسلية أحفادها الذين تجاهلوا محاولاتها واندفعوا إلى جهاز التليفزيون يعبثون بمفاتيحه دائرين من محطّة إلى أخرى، عبر ما يقرب من عشرين محطة.

ولأول مرّة يرى الأولاد هذه البدعة الأمريكية المزعجة: الإعلانات التي تستغرق (١٨) دقيقة كاملة من كل ساعة ـ ولولا وجود تشريع بهذا الحد الأقصى لما وقفتْ عنده. ولهذه الإعلانات حديث طويل.

في قبضة الإعلانات

أيام الدراسة في «لوس أنجلس» طوَّرنا ـ زملائي وأنا ـ عدة استراتيجيات للإفلات من إعلانات التليفزيون:

● منها توقيت زيارة الحمّام مع بدأ الإعلان (ويبدو أن الكثيرين كانوا يفعلون ذلك فقد دلَّت إحصائية، وفي امريكا إحصائيات عن كل شيء، أن منسوب المجاري في مدينة شيكاغو يرتفع مع بدأ الإعلانات في محطات التليفزيون الرئيسية).

● ومنها أن نقفز لأداء واجب منزلي مؤجّل بمجرد أن يبدأ الإعلان كغسل صحن، أو تنظيف قدر، أو إنزال كيس القمامة.

● ومنها أن نبدأ الحديث فيما بيننا فور بدأ الإعلان فنصبح، كقردة الحكمة، لا نبصر الإعلان ولا نسمعه.

وعن طريق هذه الحِيَل وسواها تمكنَّا من أن نستمتع ببرامج التليفزيون دون أن تقضي الإعلانات كُلّيةً على صوابنا.

أما هذه المرة فقد وقعتُ في قبضة الإعلانات، «طحت بإيديها» كما تقول الأغنية العراقية الشعبية، فكيف الخلاص؟ استسلمت لقدري، ولها. قلت لنفسي:

ـ إذا لم يكن ما تريد فأردْ ما كان.

وقررت أن «أتمتع» بالإعلانات. وشاهدت المئات منها، وأكاد أقول الآلاف، خلال إقامتي القصيرة.

درستُ وحلَّلتُ ووصلتُ إلى نتائج ثلاث:

** الأولى: أن هذه الإعلانات لا تدلّك على كيفية العثور على حاجاتك، وهذا هدف مشروع للإعلان، ولكنها تخلق في نفسك حاجات جديدة لم تكن لولا الإعلانات لتخطر لك ببال.

● وإلاً فمن يفكّر في اقتناء مجموعة «أثرية» من الإسطوانات لمطرب مغمور مات منذ ستّين سنة؟

● ومن يريد اقتناء كتاب عن «تاريخ السحر والسحرة»؟

● ومن يودّ الحصول على فيلم «فيديو» موضوعه «أسخف المباريات في تاريخ كرة القدم»؟

** والثانية: إن الإعلانات كثيراً ما تستخدم أسلوباً رخيصاً ـ ربما كانت كلمة «دنيئاً» أدق ـ في الوصول إلى هدفها، وهو إيجاد مركّب نقص هائل لدى المشاهد أو المشاهدة. الإعلان يوحي لك أن فمك أشد بخراً من فم الأسد ليغريك بشراء معجون مُعيّن للأسنان. وأن رائحة عرقك كفيلة بصرع ثور أسباني، ليدلّك على «مقاوم العرق». وأنك، بالضرورة، عرضة لإرهاق عصبي جبّار، ليقترح قرصاً من المسكنات. أما المشاهِدة فمصيبتها أنكى وأعظم. بالإضافة إلى روائح الجسد بمختلف تضاريسه وفتحاته، توحي الإعلانات للمشاهِدة أنها أقبح من زوجة إبليس، ما لم تسارع إلى استخدام

نوع مُعيّن من مستحضرات التجميل، وأنها أسمن من الدبّ القطبي، وتدلُّها على نوع معيّن من الأطعمة وأن مطبخها أقذر من زريبة خنازير، ثم تقترح مبيداً للحشرات.

وهكذا يُصبح المشاهد المسكين أبخر، منتن الرائحة، متوتِّراً، مصاباً بالصداع وحرقان المعدة والإِمساك والبواسير. كل هذا لبيع معجون أسنان، أو حبة «اسبيرين» أو قرص مُضادّ للحموضة.

وتصبح المشاهدة المسكينة شوهاء قرعاء يدب القمل على قرعتها وتعيث الصراصير فساداً في مطبخها ويجتنبها كل رجل لديه «نظر». وكل هذا لبيع زجاجة عطر أو قلم «أحمر شفاه» أو مبيد حشرات. لا بُدّ أن تكون هناك وسيلة «أنظف» «وأنزه» و«أشرف» من هذه الوسيلة لترويج المنتجات.

** أمّا الثالثة: وهي ظاهرة يلاحظها كل من قضى وقتاً طويلاً يشاهد الإِعلانات، تترى، فهي التناقض الصارخ فيما بينها حتى ليُخيَّل للمشاهد أنها تضرب بسيوفها أعناق بعض:

● بعد إعلانات عن البيرة المثلّجة تجيء إعلانات عن المصحّات المخصّصة لعلاج المُدمنين على الكحول.

● بعد إعلانات عن الطعام تفتح شهيَّتك حتى لو كنت قد انتهيت لتوك من إلتهام «قعود» كامل تجيء إعلانات «تسد النفس» عن حبوب إنزال الوزن وأطعمة «الريجيم» وملابس الرياضة.

● بعد إعلانات لا تنتهي تستغل كُلُّها إغراء الجنس بشكل فاضح مفضوح تأتيك إعلانات تُحذِّر من مغبّة الجنس «غير المأمون» (وما أشد فعالية «الإِيدز» في هذا المجال فقد حقّق من النقاء الجنسي في سنتين أو ثلاث ما عجز كل الوعّاظ والمصلحين والأطباء عن تحقيقه في عشرات السنين).

فوارحمتاه للمشاهد المسكين: يبدأ بمُركّب نقص، وينتهي بانفصام الشخصية!!

غير أنه لا بُدَّ لنا قبل أن نترك موضوع الإِعلانات أن نتساءل: لماذا هذا الصخب الإِعلاني المكثَّف في أمريكا دون بقية دول العالم، الأول والثاني والثالث؟

والسبب، في رأيي المتواضع المتطفّل على علوم النفس والاجتماع، هو أن الأمريكيين يمتازون، دون شعوب الأرض، بالرغبة المتحرّقة المستمرّة الدائمة المتلهفة في ما يسمونه «تحسين الذات».

لا تكاد تجد أي أمريكي قانعاً بوضعه، راضياً بحاله، سعيداً بواقعه. الأمريكي، طيلة الوقت، يبحث عن هوايات جديدة أو يدرس مذهباً جديداً، أو ينضمّ إلى ناد جديد، أو يتّبع ريجيماً جديداً، أو يبحث عن مورد دخل جديد. والأمريكيون، عموماً، لا يؤمنون بمستحيل. فهم، مثلاً، يؤمنون أن كل من يستطيع المشي يستطيع الرقص. وهم، مثلاً، يؤمنون بأن بإمكان كتاب واحد في علم النفس أن يغيِّر مجرى حياتك. وهم، مثلاً،

يؤمنون أنك لو اكتشفت «سر البورصة»، لأصبحت من أصحاب الملايين.

والأمريكيون يعتقدون أن كل شيء مهارة أو «تكنيك». وأن بإمكانك أن تتعلم، إذا شئت، مهارة السباحة، ومهارة السياقة، بالإِضافة إلى مهارات الخطابة والإِدارة واجتذاب النساء. ولن تجد أمريكياً في حالة استرخاء حقيقي فهو عندما يسترخي يفكِّر باستمرار في «مهارة» الاسترخاء التي يمارسها.

وما دام ذلك كذلك، كما كان يقول أساتذتنا الأفاضل في كلية حقوق القاهرة، كان من المنطقي أن يصبح أيّ كتاب يدلّك على «تحسين الذات» من أكثر الكتب رواجاً. سواء كان عنوانه «كيف تتخلّص من قشرة الرأس» أو «كيف تقيس ذكاءك بنفسك» أو «كيف تحلل أحلامك» أو «كيف تفقد (٣٠) رطلاً في الأسبوع».

وعلى أي قارىء كريم يشكّ في ذلك أن يراجع قائمة أكثر الكتب رواجاً في الولايات المتحدة وسيجد أن أكثر من نصفها يبدأ بكلمة «كيف».

(فقرة اعتراضية صغيرة: قارن هذا الموقف النفسي القلق المتحرّك بالموقف المطمئن القانع الجامد في دول العالم الثالث لتعرف سراً من أسرار التنمية ولغزاً من ألغاز التخلُّف).

هذه النزعة الظمآنة إلى «تحسين الذات» تستغلها الإِعلانات التليفزيونية أبشع استغلال وأنجحه:

● محامون يقدِّمون خدماتهم لضحايا حوادث السيارات ويعدونهم بالحصول على تعويضات يسيل لها اللعاب (تحسين الذات مادياً).

● جامعات تعرض برامج دراسية سريعة (تحسين الذات ثقافياً).

● مراكز دينية تعرض عليك أرقام هواتف تنقلك فوراً إلى عوالم من الصفاء النفسي (تحسين الذات روحياً).

ومن قبيل ذلك أن مراهقاً هندسياً سميناً ادّعى أنه « جورو » فجمع الملايين من الدولارات والاتباع فتأمل! وتأمّل!

● محلات رياضية تعرض عليك أحدث معدّاتها، وبعضها (المعدّات - أي والله!) تتحدّث معك أثناء أداء التمارين وتناديك باسمك وتشجّعك على الإستمرار (تحسين الذات صحياً).

ويوسوس لي الشيطان أن أؤلف ذات يوم كتاباً بالإنجليزية عنوانه « كيف تجمع الملايين عن طريق تربية الجمال » وأبيع منه الملايين في أمريكا.

وبعد! فقد تجاوز هذا الحديث عن الإعلانات (١٨) دقيقة فقمين بنا أن نقف عند هذا الحدّ.

في أحضان المملكة السحرية

في الصباح كان موعدنا مع «المملكة السحرية»، كما سُمّيت بحق. في عيون (فارس) و(نجاد)، اللذين يريانها لأول مرة، بريق غريب يعبر القباب الملوّنة والجبال والبحيرات ويعود ثم يذهب «لا يستقر على حال من القلق». البريق يذكرني بالمرة الأولى التي رأيتُ فيها «المملكة السحرية». كنتُ وقتها في الثانية والعشرين، ومع ذلك فقد شعرت برعشة طفولية غامرة. وها هي ذي «مملكة السحر» مرة أخرى، بعد ربع قرن. لم تتغيّر كثيراً. إنها ككلّ الأشياء ذات الجمال الأصيل تنمو وتكبر بثقة، تنمو ولا تهرم، تكبر ولا تشيخ. كدت أصيح مع شاعرنا القديم:

... فكيف كبرتُ ولم تكبري؟!

واحتوانا الزحام. وانتقلنا من مغامرة إلى مغامرة. وعدت صبياً في سن (فارس) و (نجاد). أصدِّق أن الغواصة هبطت إلى أعماق المحيط، لا مجرد متر أو مترين تحت الماء. أصدِّق أن الحسناء الواقفة هناك هي، بعينها، «قطر الندى». أصدِّق أن القراصنة سيهجمون، حقاً، على سفينتنا. أصدِّق أن مركبتنا الفضائية منطلقة، حقيقة، إلى القمر.

قبل السفر تطوّع أحد الأصدقاء بنصيحتي:

ـ لا تُضيّع وقتك في « ديزني لاند ». أرسل الأولاد بمفردهم. أو مع أمّهم. أما أنت فلا تضيع وقتك هناك.

وشكرته على النصيحة. ولم أعلّق. كيف أستطيع أن أشرح لِمَنْ لَمْ يمسّه سحر قط معنى الدخول في « مملكة سحرية »؟

كيف أقنع إنساناً لم يسمع « بقطر الندى » أن دقائق مع « قطر الندى » ليست وقتاً ضائعاً؟ كيف تقول لكبير أن عالم الصغار، بخرافاته وسواحره وأساطيره، أنقى من عالم البنوك والشركات ومجالس الإدارة؟

لا!! منذ زمن بعيد أدركتُ أنه من العبث أن تشرح أوزان الشعر لأصمّ، ومعنى العشق لحاقد محترف.

وضربنا في أعماق « المملكة السحرية » هنا « عالم الغد » وغزواته في قلب الفضاء البعيد. هنا « قلعة ساندريلا »، قلعة الحظ الذي أخذ الفتاة الصغيرة الحزينة وحوّلها أميرة سعيدة (ولا أدري لِمَ طافت ببالي صورة « ساندريلا » معاصرة لم تفقد حذاءها في منتصف الليل). وهنا دنيا الحدود: الحدود الفاصلة بين « حضارة » الإنسان الأبيض وبدائية الإنسان الأحمر ـ هذه الحدود التي زحفت تحمل المدنية والوسكي والزهري حتى قضت على الإنسان الأحمر وخيامه وجواميسه البرية.

فجأة تعبر ذهني فكرة تضايقني. أولئك الذين يريدون أن يزرعوا « ديزني لاند » متكاملة بين عشيّة وضحاها في الرياض أو

البحرين أو دبي ـ وما أكثرهم! . كأن «ديزني لاند» فسيلة نخل نأخذها من هنا ونغرسها هناك (وبالمناسبة فقد بدأنا نستورد أنواع النخيل العربية من أمريكا. . . وعش رجباً).

أو كأنّها بيت من بيوت «البريفاب» مُسبّقة الصنع. أو كأنها قلعة من قلاع «الليجو» التي يبنيها الطفل في دقائق ويهدمها في دقائق.

هذه «المملكة السحرية» استغرقت عقوداً من التخطيط والبناء فهل توجد شركة كورية تستطيع أن تبنيها لنا في سنة ونصف؟ وهذه «المملكة السحرية» يديرها، إلى جانب السحر طبعاً، جيوش من الفنيين في كل مجال فهل سننقل «ديزني لاند» بسكانها؟

والأهم من هذا كله، هل سيعرف صغارنا حكاية السفينة «مارك توين»، وجزيرة «توم سوير»، و «مدن الحدود»، و «قراصنة الكاريبي»؟ .

وهل لدينا من الوعي ما يجعلنا نصمِّم في مدينتنا المنتظرة «سفينة ابن ماجد» وجزيرة «حيّ بن يقظان»، وأرض «العماليق» و «قلعة الزرقاء»؟ .

عندما نتمكن من ذلك يجب أن نبدأ التخطيط لمدينتنا. أمّا «ديزني لاند» فلندعها حيث هي. إنها ليست حديداً وإسمنتاً وحجارة؛ إنها قطعة من الفولكلور الأمريكي.

في قبضة الطوابير

وذكر الوعي يقودنا إلى ذكر الطوابير. الطابور، على ما أظنّ، إختراع إنجليزي ولكن المسؤولين عن «ديزني لاند» طوّروه إلى فن رفيع. هناك عشرات الآلاف من الزوّار يومياً وعدد محدود من المغامرات، ومساحة محدودة من الأرض. ولولا الطوابير لتحولت «المملكة السحرية» إلى ساحة «واترلو» طاحنة. والبقاء في الطابور الواحد يستغرق ما بين عشرين دقيقة وساعتين. وقد قرأت مقالاً يشرح فيه الكاتب كيف صمَّم المخططون الطوابير فجعلوها تلتف كالحيّة ليمشي الطابور بسرعة، وجعلوها تبدأ من أماكن جميلة مُزيّنة بالزهور، وخفَّفوا وطأة الشعور بالملل لدى الواقفين عن طريق فرق موسيقية، وفرق بهلوانات تجول بين الطوابير، وهذا كله صحيح، وتخطيط ذكي ولكن الأصح أن الطوابير لم تنجح إلاّ لوجود العقلية التي تقبل أن تنتظر دورها.

وسرح بي الخيال إلى «ديزني لاند» وهمية، في دولة وهمية من دول العالم الثالث (غير الوهمي!). وتصوّرت وضع الطوابير:

● أما الأشخاص المهمّون جداً فسوف يتفقون مُسبّقاً مع رئيس مجلس إدارة المدينة ـ رئيس المجلس لا المدير العام! ـ

على أن يرتِّب لهم مدخلاً جانبياً دون المرور على الطابور ويكون في استقبالهم عند المدخل الجانبي.

● وأما من هم دونهم أهميّة ومثلهم حظاً فسيجدون قريباً أو صديقاً أو جاراً أو عضواً في العشيرة يرتِّب لهم التسلل من مدخل المهمين جداً.

● أما «الفهلوية» فسوف يسألون عن المشرف على الطابور «لدهن سيره» فيغضّ النظر عن تجاوزاتهم.

● أما أقوياء الأجسام وهواة رفع الأثقال فسيجرفون كل من أمامهم ويصلون إلى نهاية الطابور في لحظة «كجلمود صخر حطَّه السيل من علِ».

● وأما ذوو الألسنة الطويلة والأبجديات البذيئة فسوف يطلقون وابلاً من الصرخات والشتائم واللعنات يفتح لهم الطابور على مصراعيه.

من سيبقى واقفاً في الطابور، إذن؟ منتوفو الريش، «المسحوقون» كما يقول الأدباء الواقعيون، وضعاف الأبدان والعجزة وقصار اللسان. أليس هذا، بالفعل، مصير كل طابور في العالم الثالث؟ وهل رأيت، عزيزي القارىء في حياتك كلّها عظيماً أو كبيراً أو مصارعاً يقف في طابور؟ بل هل رأيت شخصاً يعرفه الموظف المعنيّ واقفاً في طابور؟

وتذكرتُ، وضحكتُ، أنني في بداية عهدي بالوجاهة الوظيفية منذ سنوات كنت حريصاً غاية الحرص على الوقوف

بهذه الطوابير. ربّما كان ذلك بدافع الرغبة في بدأ سابقة نافعة، وربما كان السبب نزعة خفيَّة في تعذيب الذات. وربما كان السبب هو «الغرور العكسي»، والغرور العكسي هو أن تعمل عكس ما يفعله المغرورون عادة (ومن أمثلة ذلك أن تكون بليونيراً، وتتنقل في سيارة يابانية صغيرة، وتستخدم ساعة قيمتها خمسون ريالاً، وترتدي «نعال زنوبة»).

على أن التجربة، بصرف النظر عن دوافعها، كانت قصيرة العمر. بعد دقائق يكتشف مسؤول ما وجودي في الطابور «فيجرجرني» إلى «صالون الشرف» أو ما يعادله. أو يحدث ما هو أسوأ من ذلك: يعرفني الواقفون أمامي فيتنازلون عن «دورهم» لي، وتبدأ مناقشة تنتهي، عادة، بانتصارهم. لقد كانت تجربة نبيلة... ويائسة!

وتصوَّرت وأنا «ملطوع» في طوابير «المملكة السحرية» أنني أدفع ثمن كل دقيقة قضيتها في صالون شرف، أو ما يعادله متجاوزاً الطوابير، وشعرت بقدر من راحة الضمير.

والآن، ربما أدركت، عزيزي القارىء، لماذا يتمتع عدد لا بأس به من موظفي العالم بقدر لا بأس به من الوقاحة والشراسة في التعامل مع المراجعين. السبب، ببساطة، أنهم يدركون أن هؤلاء المراجعين مغلوبون على أمرهم.

الفكرة الأولى التي تعبر رأس الموظّف عندما يرى إنساناً واقفاً أمامه هي:

● لو كان « هذا » « مهمّاً » لما وقف أمامي! .

والفكرة الثانية التي تتلوها مباشرة هي:

● ما دام « هذا » غير مُهم فلماذا أتكلّف الأدب والرقة في التعامل معه؟

ولو وقف المهمّون في طوابير لتحسنت الخدمة المدنية عبر الكرة الأرضية بين يوم وليلة.

منذ بضع سنوات ذهب وزير البريد في ألمانيا الغربية إلى مكتب بريد ليشتري طوابع، ووقف مع العامة. هاله ما رأى من وقاحة الموظفين واستهتارهم. فقام على الفور بحملة واسعة استهدفت تعليم الموظفين الأدب عن طريق الكتيبات الإرشادية والملصقات والندوات، وبعض الإجراءات الصارمة. وأثمرت الحملة. فأورقت وجوه موظفو البريد في ألمانيا، فجأة، بالبسمات والضحكات. واستعانت بقية الدوائر بالكتيّبات التي استخدمت في الحملة. كل هذا لأن وزيراً اشترى الطوابع بنفسه ولم يرسل الفرّاش.

رعب في الصباح

أفقت مبكِّراً ـ فارق التوقيت مرّة أخرى ـ فسمعت صوت التليفزيون يتسلّل خافتاً من غرفة الأولاد. تسللت إليهم بدوري، على طريقة زوّار الفجر، لأجدهم متلبسين بمشاهدة فيلم «الرجل الذئب يقابل فرانكنشتين». ونحن، زوجتي وأنا، لا نسمح للأولاد بمشاهدة أفلام الرعب لأنها، علاوة على ما قد تثيره من كوابيس ليلية، كثيراً ما تكون سخيفة سخفاً متناهياً. طلبتُ من الأولاد تغيير المحطة. ولكنهم صرخوا بصوت واحد (يوحي بوجود خطة طوارىء متفق عليها مسبّقاً):

ـ بابا! هذه الإجازة!

وقرَّرت أن أضع «الندى» موضع «السيف»، فوافقت شريطة ألاّ يضرُّ ذلك «بالعُلى» أي الإنضباط المعتاد بعد انتهاء الإِجازة.

وأنا أغادر الغرفة خطر ببالي أنّه من العجيب جداً أن يُعرض فيلم كهذا قبل السادسة صباحاً. ثم تذكرت «التليفزيونيين».

في الولايات المتحدة، دون غيرها من دول العالم، توجد شريحة كبيرة من المواطنين لا يمكن أن نسمّيهم إلاّ «التليفزيونيين» أو مدمني التليفزيون. هذه الشريحة تشمل الكثير

من المتقاعدين والعوانس والأرامل والمصابين بالأرق الدائم، والذين يخافون الخروج من منازلهم، والذين قرّروا لسبب أو آخر، أن الشاشة الصغيرة أرق وأرحم من شاشة الحياة الكبيرة في الخارج.

هؤلاء يقضون أمام التليفزيون ساعات لا تنتهي. حتّى أن أمراضاً مُعيّنة، في العين بالذات، تصيب هذه الفئة نتيجة التعرّض الطويل للوهج التليفزيوني. والتليفزيون متعاون مع هؤلاء إلى أقصى الحدود. هناك عدد من المحطّات يعمل على مدار اليوم والليلة. وحتى بعض المحطّات «الطبيعية» تعرض «فيلم السهرة» ثم «الفيلم المتأخر» «فالفيلم المتأخر جداً». دعوتُ ربّي ألاّ يجيئنا في عالمنا العربي السعيد يوم نعرض فيه أفلام «الرجل الذئب» قبل الفجر، خاصة وأننا في عالمنا العربي السعيد لا نحتاج إلى رعب مصطنع.

وعدنا إلى «المملكة السحرية».

لاحظت أن مئات الطلبة والطالبات، من الجامعات والمدارس الثانوية، يمسكون المكانس وينظفون المدينة من قاذوراتها دون أن يبدو على أحد تأفّف أو تقزّز أو شعور بوقوع الشرف الرفيع في الأذى. وتصوّرت ماذا سيحدث لو اقترح إنسان (فدائي طبعاً) على الطلبة الجامعيين العرب أن يقضوا عطلة الصيف في تنظيف شوارع الرياض أو دمشق أو الإسكندرية. يا للهول!!

وقبلها تعرَّفت على أستاذ يُعلِّم التاريخ في مدرسة ثانوية ويعمل في الصيف «منظماً للطوابير» عند مدخل المدينة. فهل يجرؤ أحد أن يقترح على أستاذ عربي أن يقضي الصيف «منظُماً للطوابير» أمام حديقة حيوان، مثلاً؟

يا للهول!!

ثم فُوجئت بهول حقيقي!

خواطر فلسفية في السمنة

ترهّل بشري شديد في كل مكان لم يكن له مثيل في الأيام الغابرة. في زيارتي الأولى لمدينة السحر لم يكن هناك في المكان كلّه سمين واحد أو سمينة واحدة. أيامها سمعت أستاذاً من أساتذة الاجتماع الأمريكيين يقول شبه جاد «إن من شروط القبول غير المكتوبة في جامعة هارفرد ألاّ يكون الطالب سميناً». كان ذلك في الماضي. أمّا الآن فحزب الجمّيز يكاد يكون حزب الأغلبية المسيطرة.

ووقفت في الطوابير أفلسف السمنة المحدقة بي من كل جانب، وهل هناك وسيلة للتسلية أثناء الوقوف الطويل أفضل من الفلسفة؟

● قلت: زاد الدخل فزاد الأكل (التفسير الاقتصادي للسمنة).

● وقلت: كثر أكل النشويات مع دخول أطعمة أجنبية عديدة من المكسيك وإيطاليا وفيتنام إلى المائدة الأمريكية (التفسير الجغرافي/الاجتماعي للسمنة).

● وقلت: تغلّبت إعلانات الطعام على إعلانات «الريجيم» في التليفزيون (التفسير النفسي للسمنة).

● وقلت: قد يكون هذا جزءاً من الثورة التي شملت أمريكا أثناء حرب فيتنام وبعدها: «ثورة الجنس» التي ألغت كلّ حواجز العفّة والحياء. و «ثورة التقاليد» التي أنتجت المزارع الجماعية و«الخنافس» وبقية المخلوقات طويلة الشعر. «وثورة المخدّرات» التي جعلت تدخين الحشيش جزءاً غير رسمي من برنامج كلّ جامعة أمريكية. ألا يمكن أن نضيف «ثورة أكل» قامت وقررت أن تضرب بالوحدات الحرارية عبر الحائط (التفسير السياسي للسمنة)؟

وشعرت بتعاطف شديد مع «ثوّار السمنة» لأن ضرب الوحدات الحرارية عبر الحائط هو بالضبط ما أقوم بعمله كل يوم، بنتائج لا يستحيل توقعها.

وقادتني فكرة السمنة ـ بشهيّة ـ إلى مطاعم «كُلْ قدر ما تستطيع». هذه المطاعم، على ما أظنّ، بدعة أمريكية، وهي بدعة أمريكية ضارّة جداً. والفكرة هي أن تدفع عند دخول المطعم ثمناً مُحدّداً مرتفعاً بعض الشيء ثم تقاد إلى «بوفيه» عامر بعشرات الألوان والأصناف ويطلب منك أن تأكل قدر ما تستطيع. وضرر هذه البدعة الأول أنّه يغري المرء ما لم يكن مُصاباً بعمى الألوان وفقدان الشّم، أن يأكل أكثر من حاجته، وبالتأكيد أكثر من المقادير التي اعتاد عليها. حتّى أولادي الذين لا يمسّون وجبة الإفطار، عادة، إلاّ على أنغام محاضرة أبوية وجدتهم يكتشفون، ويلتهمون، أشياء كثيرة غريبة. والضرر الثاني هو شعور الزبون النفسي بعد أن دفع الثمن المرتفع، أنه

يجب أن يأخذ مقابل ما دفع، فيملأ الطبق مرّتين وثلاثاً بما يريد. . وبما لا يريد.

الكميّات التي تجدها على الأطباق في مطاعم «كُلْ قدر ما تستطيع» هائلة، وكأن الزبائن قدموا لتوهم من مجاعة ضارية أو يوشكون أن يغادروا إلى مجاعة طاحنة.

ورغم الجشع والبطنة يظلّ على الأطباق طعام كثير لا يؤكل ويعود من حيث أتى. في مطعم الفندق، وهو من هذا القبيل، خطر لي أن الوحدات الحرارية التي لم تُلمس كفيلة بإطعام قرية جائعة من قرى العالم الثالث يوماً كاملاً. ولكن! هل يجوز لعربي من الخليج أن «يتفلسف» في موضوع الطعام الزائد؟ والوحدات الحرارية التي تبقى بعد عرس من أعراسنا كافية لإِطعام قرية جائعة من قرى العالم الثالث شهراً كاملاً. (ولله درّ الأخوات في جمعية الرياض الخيرية التي تأخذ الطعام الزائد، وتوزّعه. . . وأكثر الله أمثالهن!).

على أنني يجب أن أتوقّف عن الحديث عن الطعام حتى لا يقول أحد الخبثاء ما يقوله المثل الإنجليزي: «أنظر من الذي يتكلّم»!!

أهوال في الطريق

في اليوم التالي قرر «المجلس العائلي الأعلى» - الزوجة بمفردها! - أن نزور «نوت بيري فارم»، أو «مزرعة نوت للتوت» إذا ترجمنا الاسم ترجمة حرفية، وهي ترجمة مضلّلة فليس المكان بمزرعة، ولا توجد فيه حبّة توت واحدة. «المزرعة» مدينة ألعاب شهيرة تستوحي موضوعاتها ومغامراتها من التاريخ الأمريكي: المناجم، «الغرب»: مرابع الأبقار ورعاتها، «مدن الأشباح»، وبقية الأشياء التي يعرفها كل متابع لأفلام «الكاوبوي».

والوصول من «المملكة السحرية» إلى «المزرعة» لا يستغرق سوى ربع ساعة بالسيّارة. ولكنني لو أدركت ما سيتمخض عنه ذلك الصباح لقلت «للمزرعة» ما قال المعرّي لدار حبيبته:

فيادارها بالخيف! إن مزارها

قريبٌ... ولكن دون ذلك أهوالُ

أما الهول الأول فكان من صنع «إدوارد الأول» الذي قاده نحسه إلى أن يصدم سيّارة واقفة في فناء الفندق. أمّا كيف يتمكّن إنسان من الإرتطام بسيارة يتيمة واقفة بمفردها في فناء

واسع غير مزدحم فمعجزة «سياقيه» لم أر لها مثيلاً ـ حتّى لدى أولئك الذين تعلموا القيادة بطريقة عصامية في الرياض.

أمّا الهول الثاني فاضطرارنا إلى إضاعة وقت طويل ثمين في صحبة «إدوارد الأول» الذي كانت جهوده لحل المشكلة تزيدها تعقيداً ـ حتى أدركنا أن «المعاملة» قد تستغرق النهار بأكمله.

وكان الهول الثالث في سيارة أجرة، وسيأتيك خبره بعد قليل. دخلنا في سيارتين. الزوجة تقود نصف الحملة في سيّارة، وأنا أنقاد لبقيتها في سيارة أخرى. لاحظت حال دخولي السيارة وجود كومبيوتر صغير بالقرب من السائق (قد أكتب ذات يوم قصّة من قصص الخيال العلمي عن كومبيوتر لئيم يتعقبني حيث أذهب ـ هل من ناشرين؟!).

وسألت السائق عن فائدة «الكومبيوتر». فضغط على الزرّ. وظهر على الشاشة اسمي وعنوان الفندق والمكان الذي أرغب الذهاب إليه. وأسماء الذين طلبوا السيارة قبلي. وأوضح السائق أن هذا الأسلوب حل محلّ الأسلوب القديم وهو مخاطبة السائق هاتفياً. الشركة الآن ترسل المعلومات رأساً من «كومبيوترها» الرئيسي إلى «كومبيوتر» السيارة الفرعي.

وسألت السائق:

هل الأسلوب الجديد أفضل؟ أو أكثر فعاليّة؟

وردّ عليّ ببساطة:

ـ لا أظنّ!

وحمدت الله على أني وجدت إنساناً ـ مثلي ـ لم يشغفه الكومبيوتر حُباً.

أما الهول الذي أجّلت الحديث عنه فقد كان مسرحه السيّارة الأخرى. بعد وصولنا قالت لي الزوجة:

ـ كان سائقنا يقرأ الجريدة أثناء قيادة السيارة.

ـ ماذا؟!

ـ كان يقرأ الجريدة ويسوق السيارة في الوقت نفسه.

ـ كيف؟!

ـ كان يفرشها على بطنه الشامخة، ويضع طرفها على عجلة القيادة، ويوزّع وقته بالعدل والقسطاس بين الطريق والجريدة.

قلت:

ـ ألم تلفتي نظره إلى خطورة ذلك؟

قالت:

ـ ألم تره؟ إن وزنه يقارب (٢٠٠) كيلوغراماً.

قلت:

ـ «الصمت حكمٌ وقليلٌ فاعله»!

ديناصورات.. ومطبعة خاصة..
وكومبيوتر ينجّم

تجوّلنا في دهاليز التاريخ الأمريكي. على عربات تجرّها الخيول. وفي قطارات أثرية يداهمها قطاع الطرق بمسدّساتهم وأقنعتهم (فزع نجاد وظن الغارة حقيقية حتى رآنا جميعاً نضحك). زرنا «مدن الذهب» التي تحولت إلى «مدن أشباح» بعد أن نضب الذهب وعاد عشّاقه من حيث أتوا. وشعرت بقشعريرة داخلية.

ثم أخذنا جولة أعمق في تاريخ الكرة الأرضية. زرنا مملكة الديناصورات، تلك الكائنات العملاقة التي كانت تحكم الأرض قبل (٢٠٠) مليون سنة، والعهدة على الراوي. كان العرض مثيراً ونافعاً، لولا الطابور الذي يستغرق قرابة ساعة. ولولا أن نجاد، الذي يمر بمرحلة يعتقد فيها أنه عالم وأن الديناصورات مجال تخصصه العلمي، أصرّ على أن نعود مرة أخرى. هرب الباقون، وانصعت أنا. وبدأنا من أوّل الطابور وأنا أقول لنفسي:

ـ لا بأس. سيجبره إبنه ذات يوم على الوقوف في طابور مثل هذا.

وجدنا مطبعة يدوية من الطراز القديم تطبع لك، وأنت

واقف، الخبر الذي تريده على صدر الصفحة الأولى. وطبعنا لنجاد خبراً يقول إنه اكتشف ـ هل توقعتم؟! ـ فصيلة جديدة من الديناصورات. ونشرنا لفارس خبراً يقول إنه اصطاد أضخم سمكة قرش في العالم. أما سهيل فقد قرّر أن يصبح «بطل الكاراتيه في الشرق والغرب». أما الزوجة والحماة والإبنة فقد اعتذرن عن المساهمة في صنع الأخبار، أما أنا فقد قالت الزوجة بدبلوماسية لا تحسد عليها إنني أزعجت الجرائد الحقيقية بما فيه الكفاية. غادرنا المطبعة سعداء وفي يد كل ولد عنوان مثير عن مغامرته الوهمية. وأحسست، مؤقّتاً، بشعور السلطة اللذيذ الذي يشبه، كما أتصوّر، الشعور الذي يحسّ به أصحاب الصحف وهم يقررون العناوين الرئيسية في كل صباح. ويحسّ به «موجهو» الصحافة في العالم الثالث.

وفي ركن آخر وجدنا جهازاً إلكترونياً تخبره بيوم ميلادك والسنة فيخرج لك الصفحة الأولى (الحقيقية) من جريدة صدرت في نفس اليوم والسنة. والهدف هو أن تدرك ما كان يدور على سطح الأرض من أحداث أثناء إطلالتك السعيدة. وعرضت الفكرة على المجموعة فلم يتحمس أحد. وخجلت أن أكون «الفضولي» الوحيد الحريص على معرفة الأحداث التي واكبت قدوم طلعته البهيّة إلى الكوكب الأرضي.

وفي ركن آخر وجدنا «كومبيوتراً» ينجّم. هل تنتهي «التقاليع» الأمريكية؟ الجهاز مُصمَّم لخدمة المقبلين على الزواج. تعطي الجهاز اسم الخطيب واسم الخطيبة وتاريخ

الميلاد، وتنتظر بضع دقائق، ويأتيك تحليل مفصّل يحمل توقعات «المنجِّم الإلكتروني» حول مستقبل القِرَان الميمون. قلت «هذه فرصة لتحدّي الكمبيوترات. أعطيتُ الجهاز اسم الحماة وزوجها وبقية المعلومات المطلوبة. وجاء التحليل. نصح «الكومبيوتر» هذين الشخصين بالتريّث قبل اتخاذ الخطوة الحاسمة ودخول عش الزوجية على أساس أن الشخصيتين متنافرتان إلى أبعد الحدود، وأن الحياة الزوجية ستكون مليئة بالمشادات والقلاقل والمعارك. وضحكنا جميعاً. ذلك أن الحماة متزوجة زواجاً سعيداً منذ قرابة نصف قرن، لم يمر عليها فيه يوم واحد من المشادات والقلاقل والمعارك. وغادرنا «البصّارة الإلكترونية». حقاً، «كذب المنجمون ولو صدقوا». حتّى ولو كانوا من فصيلة «الكومبيوتر».

في نهاية اليوم الطويل ذهبنا إلى المكان الذي اتفقنا مع «إدوارد الأول» على أن نجتمع فيه، لكنه لم يكن هناك. وطال الانتظار. وخشيت أن أطلب سيارة أجرة فأكتشف أن السائق من هواة مطالعة الروايات أثناء القيادة. جاء «إدوارد الأول» متأخراً ساعة. قال لي ببرود تحسده عليه قمم الألب في ديسمبر:

ـ لقد تأخرت ساعة!

قلت: ببرود أشدّ:

ـ سأقتلك فيما بعد!

في عوالم هوليود الوهمية

وفي اليوم التالي قرّر «المجلس العائلي الأعلى» ـ تعرفونه الآن! ـ أن نزور «ستوديو يونيفرسال» حيث يشاهد الزوّار كيف تُصنع الأفلام السينمائية. وجاء «إدوارد الأول» في موعده هذه المرّة. ولكنه، لسبب لم يعرفه أحد، قرَّر الانتظار على المدخل الخلفي بدلاً من الرئيسي كما هي العادة. وبدأنا نطارده بين المدخلين مطاردة «ساخنة» حتى استطعنا أن نمسك بتلابيبه. قال بابتسامته الساحرة المعهودة:

ـ لقد وقفت على المدخل الخلفي!

ودخلنا عالم السينما. وهناك تعرَّفنا، عن كثب، على عدد من الشخصيات الشهيرة. رأينا العم «فرانكنشتين» وأخذنا معه صورة تذكارية. ورأينا الغوريللا العملاق «هونج كونج» وأخذنا له صورة عن بُعد. ورأينا «الفك المفترس» (سمكة القرش الشهيرة التي ظهرت حتى الآن في أربعة أفلام ـ والبقية تأتي) وآثرنا الإبتعاد السريع دون صور. كما رأينا الطيور والقردة والكلاب التي تُمثّل.

وفي أثناء ذلك، كانت الحافلة التي تقلُّنا تتعرض لجميع أنواع «الكوارث» السينمائية. مرّة هوى بنا جسر معلَّق. ومرّة أخرى إنهار علينا نفق مظلم. ومرة ثالثة، ضَرَبنا زلزال. وكانت

كل هذه الحِيَل من الدِّقَّة بحيث أن صرخات الذعر الحقيقية كانت تنطلق من حناجر الركاب مع كل « كارثة ».

وكان من ألطف المناظر التي رأيناها المطر الصناعي. مضخّات هائلة تدفع المياه الغزيرة التي تتساقط على الأشجار وتتحوّل نهراً يجرف كل ما أمامه. بعد دقائق تقف المضخّات، وينقطع المطر، وتعود الأشياء المجروفة إلى وضعها السابق، وترجع المياه إلى الصهاريج دون أن تضيع منها قطرة واحدة لتستخدم من جديد. بعد هذا، كيف يمكن أن أستمتع بمشهد سينمائي يصوّر عاشقين تحت المطر وأنا أعرف من أين جاء المطر وأين سيذهب؟

وتعرّفنا على بقيّة الخِدَع. العمارة الشاهقة، في حقيقتها، مجرّد واجهة كرتونية لا يقف وراءها شيء. المحيط، في واقعه، مجرد شريط مائي صغير لا يمكن أن تغرق فيه بعوضة. المبنى الواحد ينقلب بنكاً ومحكمةً وسكناً ومركز شرطة، مع كل مشهد جديد. وكان أعجب ما شاهدناه هو صناعة « أفلام الفضاء ». هذه المركبات الطائرة الجبّارة التي تملأ الشاشة وتصطرع بجميع أنواع القذائف المفزعة هي، في الحقيقة، مجرد رسوم متحركة على « كومبيوتر ». « الكومبيوتر » مرة أخرى!

رجعنا من الزيارة بانطباع جديد عن أفلام السينما. إنها ليست مجرد وهم، كما يعرف الجميع. إنها وهم داخل وهم داخل وهم!!

على المدخل وجدنا سائقاً آخراً وسيَّارة جديدة في انتظارنا. وأخبرنا السائق الجديد أن «إدوارد الأول» تعرَّض «لحادثة صغيرة» وأن الشركة أرسلته بدلاً منه.

ولم نسأل عن التفاصيل. وتنَفَّسنا الصعداء. وكان هذا آخر عهدنا به.

والآن: أين نذهب؟

في اليوم الذي يلي إنقسمت المجموعة قسمين، الزوجة والإبنة والحماة ذهبن للتسوُّق وهو، لمعلومات القارىء العازب، تبديد أكبر قدر ممكن من مال الزوج في أقل عدد ممكن من الفساتين. وعُهد إليَّ بتسلية الأولاد في المجموعة الثانية. وتسلية أولاد تتراوح أعمارهم بين السابعة والرابعة عشرة ولكلٍّ منهم شخصيته المستقلة العنيدة ليست بالأمر الهيِّن. إنها مسؤولية يجدر بمن لم يجرِّبها أَلاَّ يستهين بها.

قلت: حديقة الحيوانات؟

قالوا: بعيدة!

قلت: دنيا الأسماك؟

قالوا: بعيدة... وحرّ!

قلت: أين نذهب إذن؟

قال سهيل: صالة ألعاب إلكترونية.

وهذه الصالات، بالمناسبة، أنجح وسيلة، بعد التسوُّق، في تبديد حطام الدنيا. وكلما عثر الأولاد على صالة منها أسرعت أبحث عن أقرب بنك. وجزى الله المسؤولين في مدينة الرياض خيراً عندما قطعوا دابرها قبل سنوات.

قلت: كلا!... كلا!.

قال نجاد: نعود إلى الديناصورات.

قلت: هيهات!

قال فارس: نعود إلى «ديزني لاند».

قلتُ: «معصي»[1]!

كان النقاش يدور. والسيارة تدور. والسائق في انتظار القرار. عندما رأيت دار سينما تعرض فيلماً جديداً لجيمس بوند. صرخت:

ـ وجدتها. فيلم جيمس بوند.

صرخ الأولاد: موافقون.

وهذا ما كان!

---

(١) أي أعلن العصيان، بالعامية السعودية.

الدوران في الأماكن القديمة

عندما رجعت إلى الفندق سألت الأنجال:

ـ هل تودُّون أن تذهبوا معي غداً لأريكم الجامعة التي درست فيها والمنازل التي سكنتها؟

قالوا: طيِّب!

وقالواها بنفس الحماس الذين يواجهون به دعوة لزيارة طبيب الأسنان أو أداء الواجبات المنزلية. وذكَّرت نفسي ـ للمرة الألف ـ أن اهتمام الصغار بتاريخ ما قبل التاريخ ضئيل جداً. ووعدت نفسي ـ للمرة الألف ـ أن أقلع عن عادة الكهول والشيوخ في الثرثرة عن «أيام زمان».

ذهبت، بمفردي، أدور في الأماكن القديمة.

- المكان: جامعة جنوب كاليفورنيا.
- اليوم: الجمعة.
- الوقت: قبيل الظهر.

الجامعة شبه فارغة كعادتها في كل جمعة من موسم الصيف. تمشيت أنوء بوحشة شديدة وكأنني في «مدينة أشباح» هجرها عُشَّاق الذهب. أتصوَّر أن الطلبة الذين يمرّون بي

يستغربون هذا الكائن الذي يهيم على غير هدى. ربما ظنّوه «بروفيسراً شارد الذهن». لم يتغيّر المكان كثيراً. المباني كما هي، مع زيادات لا تكاد تذكر. الطالبات كعادتهن؛ الطلبة كعادتهم. قصص الحب، على ما يبدو، كعادتها. وأنا أهيم على غير هدى. لم أعد أتحمل وطأة الغربة الخانقة في مكان قضيت سنين من عمري لا أحسُّ فيه بأيّ غربة. شعرت بأنني جاسوس، أو لصّ، أو طفيلي. وهربت دون أن أتلفَّت.

عدت إلى البيت الذي كنت أسكن فيه. بقيت في السيارة أتأمّله. كان هناك شباك واسع رأيته وضحكت مع ذكرى باسمه. في هذه الغرفة كان يسكن صديقان عزيزان (هما الآن من وجوه المجتمع البارزة). كان أحدهما لا يستطيع النوم إلاً والستائر مرخاة. وكان الآخر لا يستطيع النوم إلاً والستائر مفتوحة. وبدأت معركة صامتة بينهما استمرّت قرابة سنتين. يفتح محب الضوء الستائر وينام قرير العين. ينهض مُحبّ الظلام مذعوراً ويرخي الستائر وينام على الفور. يهبّ محب الضوء من مضجعه ويفتح الستائر. وهكذا ـ دواليك. والغريب أن أحداً منهما لم يتحدث مع الآخر عن المشكلة وكأنها أضغاث أحلام. لعلّهما إذا قرآ هذه السطور سيتذكران ويضحكان. ويهرع أحدهما إلى الستارة يفتحها. والآخر يغلقها.

وعبرت بي مشاهد باسمة كثيرة. الساكن الذي يطارد مديرة المنزل العجوز المستبدة ليقذفها في البركة وشماتتنا جميعاً بها. ماكينة «الكوكاكولا» التي تُقذف بانتظام كل يوم سبت في أعماق

البركة ذاتها. المقالب التي لا تنتهي. ومشاهد أخرى لا أتصور أن الرقيب ـ زوجياً أو غير زوجي ـ سَيسرّ بنشرها.

ومررت بمنزل آخر. ووقفت تحت شرفة ما. ورجعتُ السنين القهقرى. وتخيَّلتُ صاحبة الشرفة. وعادت إليّ أصداء من قصائد قديمة كثيرة كُتبتْ في ظلال الشرفة.

- وأنتِ ببسمتك المُورقهْ
أرقُ وأنضّرُ من زنبقه
سقاها الربيع بلا موعد
لتنبت بالقرب من مقعدي
- سمير طيفك في أجفاني الأرقُ
يا فتنة أرتمي فيها... وأحترقُ
- أنا أحلمُ
أنا يا حبيبة أحلمُ
أنا أغمضُ العينين... أسبح في
جمالك أنعمُ

والتفاصيل، لمن أراد، في ديوان «قطرات من ظما»!

وتخيَّلتُ «صاحبة الشرفة» الآن في مكان ما تقود حملة من الأولاد ـ وربّما الأحفاد!

ردَّدْتُ مع شوقي:

وَهَبِ الزمانَ أعادها هل للشبيبة من يعيد؟!

عندما كنا نغادر لوس أنجلس طفرت إلى ذهني حكاية الزائر الأجنبي الذي عاد إلى باريس بعد غياب طويل. وقرّر أنها كانت أجمل بكثير في الماضي.

سألوه: هل تقصد عندما كانت باريس باريس؟!

قال: كلاّ. أقصد عندما كنت أنا أنا!

كان هذا لسان حالي والطائرة تبتعد عن الأماكن القديمة.

ISBN 1 85516 305 5



DAR
AL SAQI

الساقي